

المصري اليوم

فنون

«اضطراب» لـ سامح الطويل.. أعمال عن الترحال ورسم ملامح الهوية الثقافية

أيقونة • 4 مارس، 2025



معرض اضطراب لـ سامح الطويل

كتبت: د. رانيا جعفر

ترجمة: أسامة نوفل

على مدار العشرين عاماً الماضية، أنتج سامح الطويل مجموعة واسعة من الأعمال الفنية متعددة الوسائط التي تتناول أسئلة الهوية الثقافية والهجرة والاستعمار (الجديد)، وكان واحداً من عدة فنانين بدأوا مسيرتهم الدولية من خلال تعاونهم مع المعهد الثقافي الألماني في القاهرة - جوته - في أوائل الألفية الثانية، مما أدى إلى تطوير ممارساته الفنية التي تستند إلى السرديات التفاعلية العابرة للوسائط عبر مختلف الوسائل.



معرض اضطراب - ل سامح الطويل

في الوقت ذاته، أضفى انخراط سامح الطويل في المعهد خلال بداية مسيرته تأثيراً ذاتياً إثنوغرافياً على أعماله - وعلى شخصيته الفنية - ، حيث تداخلت كلاهما بشكل وثيق ضمن موضوعاته وممارساته المادية داخل الوسائط السمعية والبصرية، ولا سيما الوسائط الجديدة، والعروض الأدائية الحية.

حيث تمثل الأخيرة عروضاً حية، غالباً ما يؤديها الطويل بنفسه، إما مع البيانو - الآلة المفضلة لديه - أو ضمن تفاعلات مباشرة مع أسطح وعناصر مادية تؤدي دوراً يشبه منطق الشاشات التفاعلية، وبالتالي تتحول الأشياء الأناлоговية لواجهات تفاعلية حية بين الفنان وعالمه.



والمشاركون والطبوغرافيا مع كل أداء، مما يعكس كثافة الصدف العشوائية والعلاقات المتشابكة التي تجابهنا في بيئتنا الاجتماعية والسياسية، ضمن أنظمة وتشكيلات التكنولوجيا الرقمية التي أصبحت تهيمن على حياتنا.



تقنيات الوسائط المتعددة

وتضيف أنه لطالما جرب الطويل تكنولوجيا الصور المتحركة وتقنيات الوسائط الرقمية، وتطورت بنيتها الجمالية بشكل ملحوظ على مر السنين؛ بدايةً من أعمال الفيديو ذات الجودة الحبيبية قليلة الدقة التي صُوِّرت بكاميرا فيديو رقمية بسيطة، والتي تعكس الملمس البصري لحركة فن الفيديو في ستينيات القرن الماضي، مروراً بمحاكاة بصرية للصور الغربية لكاميرات المراقبة المنتشرة ونظرتها المتغلغلة في التسعينيات والألفينات، ووصولاً إلى صور الأفلام عالية الدقة التي تنتكر بشكل متقن، وانتهاءً بالمرئيات التوليدية للأنظمة المبرمجة اصطناعياً التي تكتسب حياة مستقلة على الشاشة وداخل "الآلة".

وتوضح أنه بالانتقال إلى معرض الطويل الفردي الضخم الأخير بعنوان "اضطراب" في نسخته بالقاهرة والإسكندرية في يناير الماضي، عند مدخل مركز الجزيرة للفنون في حي الزمالك العريق، يواجه الزوار محاكاة رمزية للواقع، أشبه بدعوة إلى حياة متحولة، إلى ترحال معاصر، إلى وجود يعج بالفوضى، حيث الترحال والانتماء، الانتقال والعودة، المغادرة دون رجعة، الاضطراب والتعافي.



مستعد للرحيل

فالعَمَل التركيبي "مستعد للرحيل" يجسد هذه الفكرة من خلال سيارة فيات 128 قديمة محملة بأغراض شخصية متفرقة، مما يعكس حالة الانتقال أو النزوح من منزل إلى آخر، أو من وطن إلى آخر جديد، أو حتى من حياة إلى أخرى. كل شيء مربوط بأغلفة بلاستيكية، بينما تصفي الأضواء النيونية المثبتة أعلى السيارة طابعاً بصرياً قوياً، يربط التركيب الفني بالبنية التحتية الحضرية المحلية وثقافة الشارع المصري.



فـ"اضطراب" ليس مجرد معرض، بل هو مختبر مفتوح، جسّد مشتهى قيد الإنتاج، يشير إلى كيان نشط حي لانتهائي في ترابطه مع العالم غير البشري. يبرز التناقض الحاد بين الطابق الأرضي لمركز الجزيرة للفنون، القصر الإسلامي العثماني الجديد والذي تحول إلى متحف الخزف الإسلامي، وبين القسم العلوي الخاص بالخزف، تشابكاً هجيناً يتغلغل في أرجاء المعرض بأسره: الطابع النسيجي لقاعة الطابق الأرضي، الذي أعيد تجديده بشكل تقريبي، يعكس مفهوم "تصميم الأزمة" لدى الفنان، وحالة السيولة التي تتشابك فيها الممارسات والأنماط الفنية المختلفة مع "آلات" أخرى، سواء كانت آلات حية أو غير حية، عمليات معالجة الإشارات، برمجة تفاعلية، استجابات حسية، أو مولدات بصرية وصوتية تعكس الفوضى والاضطراب.



للاغتراب، أم أنها لمحة ساخرة تُربك الزائر داخل بيئة تُخفي عن عمد بنيةً غير مكتملة، توحى بحالة من الأزمة والطوارئ، بينما تكشف، في ذات الوقت، عن توقٍ دفين للانتماء؟.



فعل تفكيكي

فتعكس الأعمال الفنية البصرية، داخل المعرض وخارجه، بنيةً ريزومية -المفهوم الذي يستحضره الطويل كثيراً من فكر جيل دولوز- وتُطوّر الجمالية التجزئية نحو منهجية عمل مفتوحة، غير مكتملة، سواء في عمليات الإنتاج أو النتائج. "اضطراب" هو فعل تفكيكي، عرضٌ غير منتهٍ، الوسيط ذاته يصبح الرسالة في أزمنة القلق وعدم اليقين، في مواجهة مظاهر القوة الإمبريالية، وتهديدات الحروب، ومحو الذاكرة الجمعية والثقافية في ظل الحوكمة التقنية-الرأسمالية ذات الطابع العرقي.



في أن واحد، ضمن عالم مشترك، حيث تتماهى القرابة والقرب المكاني مع الشبكات العصبية الرقمية والبنى التحتية، وحيث يتم تفكيك وهم الوصول المتساوي إلى الموارد، والحرية، والهجرة، والتنقل، عبر نقد بصري متداخل.

في نسيج اللاكتمال، حيث يمثل الجسد الفني عملاً مفتوحاً – يتلاعب بصرياً ومادياً بمفهوم "الجسد بلا أعضاء" لدولوز وغاتاري – تقوم الأعمال الفنية بتفعيل خطاب القوة والأنظمة المؤسسة على الأنطولوجيا، وعلى رأسها اللغة، التي يكشف عنها الفنان الرخال الجديد في صيغ بصرية، تسلط الضوء على هشاشة الذات البشرية، وانفصالها الجغرافي والثقافي، ضمن عالم مشترك متشابك الأعمدة الاجتماعية والعرقية والسياسية، حيث تُعاد صياغة المكانة والقيمة والرموز الثقافية.



نقد للحياة

يمثل معرض الطويل "اضطراب" نقداً قوياً للحياة الرقمية المعولمة، حيث تتداخل التكنولوجيا مع الأزمات الإنسانية والتعقيدات الجيوسياسية العالمية. لم تعد المنصات التقنية كيانات محايدة، بل أصبحت عوالم تكنولوجية حسية، تمتلك حياة مستقلة تعكس جسد الإنسان وتجربته العاطفية. يحتوي معرض "اضطراب" على سلسلة من التجارب الفنية البرية والمتولدات البصرية، والتقنيات عابرة الوسائط حيث ينعكس الفرد الرقمي داخل بيئات تقنية متعددة التأثيرات، تتجسد في أشكال افتراضية تتحدى مفهوم الثبات والهويات المستقرة.

المصري اليوم



ويتجلى المعرض كسلسلة من التكوينات الفنية، التركيبات الفركتالية، والبُنى البصرية، مدعومة بتكنولوجيات التحول، وهي دراسة لحالة الترحال خلال التقاطعات المتنوعة بين التكنولوجيا والعاطفة.

ويتجسد ذلك من خلال أشكال فنية تأملية تعكس الطبيعة المتغيرة للصور والتمثيلات والأنظمة الرقمية والهوية البشرية، ما يجعلها بمثابة إيكولوجيا متطورة للرغبة والوجود الهائم في عصر ما بعد الرقمنة.

كتبت: د. رانيا جعفر

ترجمة: أسامة نوفل